إخوة في الوطن

في إحدى عربات القطار المتجه إلى الإسكندرية كانت جلسته على مقعد يجاور إحدى النوافذ، وقد بادر إلى هذا المكان رغم الزحام لأكثر من سبب، أولها : أنه يعاني من أزمة ربو تتفاقم في الزحام ، فإذا ما كان إلى جوار النافذة أمكنه أن يتفادى الاختناق الناجم عن تلاطم الأنفاس الحارة المتصاعدة داخل العربة ، وثانيها: أنه من خلال جلسته بجوار النافذة يستطيع أن يجول ببصره فيما يتراءى له من مساحات مترامية الأطراف من الخضرة التي تبهج النفوس، وتُسْكِر الأرواح، تلك الخضرة التي تعيد الإنسان في أي زمان ومكان إلى ذكرياته الأولى حينما كان ذَرًّا في صلب أبيه آدم، وهو يتنعم في الجنة قبل أن يهبط إلى الأرض، وثالثها : أنه يرغب في إيجاد مهاد لرأسه إذا هفت إلى النوم، أو ألجأها مرغمة إليه هرباً من ثرثرة أحد الركاب الفضوليين.

هو كهل ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير، يبدو في الأربعين من عمره ، غير أن صمته ووقاره، وخيوط الشيب التي قد ألمت برأسه، وبعض التجاعيد التي خطتها عوامل الزمن في وجهه تجعلك تظنه فوق الستين ..!

أرسل بصره إلى نهاية العربة قبل أن تتكدس بالركاب .. جعل يتأمل في هدوء ووقار تلك الرؤوس والوجوه الكثيرة المنتصبة فوق أعناقها والتي تبدو متشابهة إلى حد كبير في شكلها وتركيبها لكنها مع هذا تبدو مختلفة ومتباينة في كل شيء ، مختلفة في اللون ، مختلفة في التقاطيع، مختلفة في الحال ، مختلفة في التفكير؛ فهذا وَجْهٌ ذو بشرةٍ سوداء ، وآخر ذو بشرة سمراء ، وثالث ذو بشرة

بيضاء تضرب إلى الصفرة، ورابع ذو بشرة بيضاء تضرب إلى الحمرة، وهذا رجل ذو أنف أقنى ، وآخر ذو أنف أفطس، وتلك خنساء تتناغم تقاطيعها وتتلاحم مكونة لوحة فنية مبهرة ، وهذا شخص مشرق الوجه منبسط الأسارير ، وآخر مكفهرٌّ ، وثالث مطرق في الأرض ، ورابع شارد اللب متبلد الأسارير لا تبدو جلية ملامحه ، أو بالأحرى لا تستطيع أن تتنبأ إن كان شخصاً انعزالياً ، أو كان شخصاً اجتماعياً .

حرّك رأسه المستدير يمنة ويسرة ثم قال متمتماً :

ـ سبحان الله .. قادر وغيره لا يقدر .. لكل وجه من هذه الوجوه مهما تشابهت في الملامح بصمة تميزه ، ويعرف بها صاحبه بين ملايين البشر .. لله في خلقه شئون.

في العربة تختلط الأصوات، فلا تكاد تميز كلمة مما يقال ، إنها الهمهمة ، بل الدويّ أو الطنين، لكن صوتاً انبعث فجأة من نهاية العربة يشق عباب الطنين ، عرف الجالسون والواقفون ـ من غير أن تشرئبَّ إليه أعناقهم ، وتخترق الحواجز صوبه أبصارهم ـ بأن هذا الصوت المنبعث صوت شحاذ يستجدي في ذلة وانكسار، أعرضوا ونأى كل واحد منهم بجانبه، وأظهر التشاغل من كان قبلُ في غير شُغُلٍ، ومضى الشحاذ يمر على المقاعد فلا تمتد إليه بالعطاء يد ، كأن المقاعد قد عريت من جالسيها والمتكئين عليها ، أو لكأن من فوق المقاعد ومن حولها خُشُبٌ مسنَّدة .. يدٌ واحدة هي التي امتدت إليه في هذه العربة بورقة مالية لا تعرف قيمتها إذ كانت ملفوفة بإحكام حتى لا يعلم أحد مقدار الصدقة التي تصدق بها صاحبها.. !

إنه الرجل الذي حرص على الجلوس إلى جوار النافذة ، رمقه الركاب بعيون حائرة كأنما قد فعل شيئاً عجباً ، ونظر إليه الشاب الجالس أمامه بامتعاض كأنما قد اقترف جرماً عظيماً وإثماً مبيناً، ثم قال له وقد ارتسمت على سحنته علامات الضجر :

ـ لماذا أعطيته ؟!
رد الرجل وعلى وجهه أمارات الدهشة :
ـ أليس من السائلين ؟!
ـ بل قل من الأفاكين الكذابين .
ـ الله أعلم .. أنا لم أفتش عن قلبه .
ـ يا سيدي هؤلاء أغنى منك ومني ومن كل هؤلاء الركاب ، إنهم يحترفون التسول لأنه أسهل وسيلة في اجتلاب المال .. وأنت بكل أسف تساعدهم على التمادي في جريمتهم.
ـ ومن أدراك ، فربما يكون أحدهم في حاجة حقيقية لهذا المال ، لماذا تعمم يا أخي ؟ الناس ليسوا جميعا سواء.
سكت الشاب لأنه شعر بعدم جدوى الحديث مع رجل يخالفه معتقده .. فتح آخر الصحيفة وجعل يمسح عناوين الأخبار بعينيه كمن يبحث عن ضالته ، استوقفه خبر صغير مضمونه أنه تم القبض على المجموعة الإرهابية التي استولت على محل الذهب المملوك لأحد الأقباط ، قال معقباً على الخبر :
ـ المفروض أن تكافئهم الحكومة بدلا من معاقبتهم .
وافقه الشاب الجالس إلى جواره الرأي، وتدخل في الحوار ثالث، وتدرج الحديث إلى بعض أحداث الشغب الدائرة بين بعض المسلمين وبعض الأقباط في صعيد مصر .
أحس الرجل الصامت الجالس بجوار النافذة أن عليه دوراً في تصحيح بعض الأفكار المظلمة عند هذه المجموعة من الركاب .. قال في حكمة الشيوخ ، ويقين العارفين :
ـ يا سادة .. ليس الأمر كما تزعمون .. ليس من حق أي مسلم أن يغتصب حقوقا ليست له حتى لو كان صاحب هذه الحقوق على دين غير دينك، بل حتى لو كان كافراً على غير ملة أو دين، لو كان ما تقولون به حقا لاستحل رسول الله أموال الكفار المودعة

كأمانات عنده، لكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الهجرة ترك علي بن أبي طالب يبيت في فراشه ليرد الأمانات إلى أهلها ، ومن هم أهلها ؟ إنهم الكفار الذين آذوه ، وعذبوا أصحابه ، وأخرجوه وأصحابه من أحب البلاد إلى قلبه.. يا سادة .. ألم تسمعوا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: " من آذى ذميا فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة"؟!، ألا تعرفون أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوصى أصحابه فقال :"إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمةً ورحماً"؟!

رد الشاب في حدة :

ـ الأقباط الذين أوصى بهم الرسول ε غير القبط الموجودين الآن ، لقد كانوا متسامحين غير متعصبين ولا حاقدين .

ـ ومن قال لك يا أخي بأنهم متعصبون حاقدون .. ؟! ها أنت ثانية تعمم في كل أمورك، وتخلط الأوراق؟!

نظر إليه أحدهم بعين الريبة وقال :

ـ هل الأخ مسيحي ؟!

أجاب في سماحة وهدوء :

ـ كلا يا أخي .. بل مسلم يعرف دينه جيداً.

ـ لماذا إذن تدافع عنهم ؟!

ـ يا أخي أنا لا أدافع عن أحد ، ولكني أريد أن أصحح مفهوماً خاطئاً راسخاً في عقولكم .

ـ وما هذا المفهوم الخاطئ الراسخ في عقولنا ؟

ـ ألسنا يا سادة نغضب إذا ما وصفنا أهلُ الغرب بالإرهاب ؟! إننا نغضب لأنهم لا يقولون الحقيقة ، بل يفترون ، لأنهم رأوا شخصاً مسلماً آثر مواجهتهم بالإرهاب فأطلقوا الأحكام معممة على كل المسلمين .. هكذا الآخرون يغضبون حينما تطلقون الأحكام عليهم في غير حكمة ولا روية .

سأقص عليكم يا سادة موقفاً حدث لي يؤكد كذب ما تلوكه ألسنتكم ، ويخيم على عقولكم، كنت ـ ذات يوم ـ عاملاً في إحدى شركات القطاع الخاص، كان شبابي يغرني ويستفزني ، فأتحرك في خفة هنا وهناك كطائر رشيق ، كنت أثناء العودة إلى بيتي أجوب القطار من أوله إلى آخره ثم أعود من حيث بدأت دون كلل أو ملل ، أقفز تارة فوق الأرفف المنتصبة ، والمعدة للحقائب ، وتارة أقف عند الباب وأمد إحدى ساقي في الهواء عابثاً وساخراً من سرعة القطار غير آبه لشدة الهواء ، وفجأة حدث ما لم يكن في الحسبان؛ فبينما القطار يسير بسرعته المعهودة انعطف الطريق فجأة، كنت حينئذٍ واقفاً أمام الباب غير مكترث.. وجدتني أطير كريشة في الهواء ثم سقطت على الأرض ، أدركتني عجلات العربة الأخيرة دهمت ذراعي، و قضمت إحدى قدميّ لم أفق من غيبوبتي إلا بعد ثلاثة أيام .. انهارت في لحظة آمالي، واكتنفني الجزع حين رأيتني طريح الفراش ، وحول سريري وقف أطفالي الخمسة وأمهم يبكون.

خرجت من المستشفى بعد ثلاثة أسابيع لأجدني مفصولاً من العمل، تحدثت إلى مدير الشركة واستعطفته لكنه لم يأبه لأمري .. زعم أن شخصاً آخر قد حل محلي في العمل ، ولأن الشركة لا تؤمن على العاملين فيها فقد وجدتني بلا راتب أو معاش ، ذهبت إلى شركة أخرى أبحث عن عمل فعرضني مديرها على طبيب الشركة فقرر بأني لست صالحاً للعمل ، إذ إن نسبة العجز تجاوزت الستين بالمائة ، فسألت الطبيب وهل لي من عملية جراحية في ذراعي تجعلني أفضل حالاً وقادراً على العمل ، أخبرني الطبيب بأن هذا ممكن لكن تكاليف العملية باهظة، سألته: ـ كم تقدر التكاليف ؟ أخبرني بغير اهتمام : ـ عشرون ألفاً ..! ثم تركني ومضى إلى عمله.. نزل الخبر على رأسي كالصاعقة ، عشرون ألفاً لا أملك منها سوى عشرة جنيهات في جيبي، وهاأنذا بلا وظيفة أو عمل أقتات منه أنا وأولادي ، عشرون

ألفا تجعلني أمارس حياتي الطبيعية فلا يتأفف مني أحد من أصحاب الأعمال ، لكن أين حدودها ؟ كيف السبيل إليها ؟!

نصحني أحدهم بأن أعرض حالتي على الناس بعد الانتهاء من صلاة الجمعة في المسجد الكبير بالقرية ، منعني حيائي وتعففي أن أقف بين الناس ضعيفاً أستحثهم على البذل كمن يتسول .. تولى أحد الأصدقاء الأمر وأناب عني في المهمة حين وجدني مترددا ، تبرع البعض، وتجهم البعض ، كانت الحصيلة في هذه المرة مائتي جنيه، شعرت بخيبة الرجاء.. عدت إلى بيتي كاسف البال محطم الآمال.

عرض عليّ أحدهم أن أذهب إلى عمدة القرية وأطلب منه يد المساعدة ؛ فلديه من البيوت والأطيان ما يجعل مثل هذا المبلغ غير عسير عليه ، وربما دعا أعيان القرية للمساهمة في هذا التبرع ، ذهبت إلى العمدة وشرحت له قصتي فما كان منه إلا أن استدعى بعض أعيان القرية وعرض عليهم الأمر فتمتم بعضهم ، وتبرع البعض ، وأحجم آخرون بحجة أن هذا المبلغ ربما يدفع في عملية كهذه ثم لا تنجح .

بلغ ما تم جمعه في هذه الليلة ألف جنيه ، مع العلم أن كل واحد من هؤلاء يستطيع أن يتبرع بالمبلغ كله من غير أن يؤثر عليه في شيء لكنه البخل والطمع الذي جبل عليه كثير من الناس..!!

ضاقت عليّ الأرض بما رحبت ، ذهبت إلى قرية أخرى أستجدي الناس في حياء يكاد يذيب لحم وجهي ، فمنهم من يعطي عطاء الحريص ، ومنهم من يعرض كأن لم يسمع ، ومنهم من يتطاول بالسباب، ويرسل اللعنات كأنني جئت أستلب منه أمواله .

أصابني القنوط ، جلست في بيتي منعزلاً كارها ملاقاة الناس، ولأن الأولاد في حاجة إلى طعام فرطت فيما جمعته ، وقلت في نفسي هم أولى مني بالحياة ، تربص بي الشيطان .. استولى على مجامع

أفكاري .. لم يعد للحياة قيمة بعد أن أصبحت عاجزاً وعبئاً على غيري، لاحت لي فكرة الانتحار كما يلوح الماء العذب للظامئ في جوف الصحراء المهلكة .

أقدمت على الانتحار أكثر من مرة بعد أن زاغ فكري بين ضلالات الأوهام ، وحاد قلبي عن طريق الإيمان ، أصبح الجزع رفيقي ، واليأس طريقي .. غير أني في كل مرة تفشل خطتي لسبب من الأسباب .. ندبت حظي العثر، ولعنت الموت الذي يفر مني كما يفر الماء من بين أصابع قابضه.

ذات مرة ، نمت أمام القطار لعله يكون أكثر جرأة من الحبل المتدلي في سقف الغرفة، والذي أغضى حياء وعجز عن أداء مهمته فبدا هشا باليا ، أو يكون أسرع في تنفيذ المهمة من شريط الأقراص التي ابتلعتها فأدركوني بغسيل للمعدة ..!

أقبل القطار يزمجر من بعيد ، وصوت بوقه العاوي يرن في سمعي كأغاريد الفرح تداعب القلب فيهتز طرباً .. كنت أستحثه بكلمات في نفسي :

ـ هيا .. أيها القطار الكسول أنجز مهمتك ، ألَمُ لحظةٍ ، ولا كل لحظة ، انشقت الأرض عن رجل أقبل نحوي مهرولا ، انتشلني من مرقدي قبل لحظة من وصول القطار .. احتضنني بعنف وظل رابضاً مكانه حتى مر القطار بجوارنا كانت المسافة بيننا وبينه لا تزيد عن متر واحد .. سألني الرجل في ذهول :

ـ ماذا تفعل يا رجل ؟ هل جننت ؟!

أجبته في أسى مرير :

ـ لا يا سيدي بل أصبحت عاقلا .

ـ كيف أصبحت عاقلا وتلقي بنفسك في مهاوي الردى ؟!

ـ هروباً من الشقاء ، وبحثاً عن السعادة .

ـ وهل تظن السعادة في الموت ؟

ـ إن في الموت راحة .
ـ لو كان في الموت راحة أو سعادة كما تقول لفر إليه حكماء العالم، احمد الله يا رجل أن كتب لك النجاة ، وعصمك من العذاب الأبدي ، ألا تعلم أن من قتل نفسه خارج من رحمة الله مخلد في النار؟!

استحييت منه ومن نفسي حين لامس كلامه شغاف قلبي ، وتحركت في صدري بقية من نوازع إيمان قديم ، أحسست ببرد الإيمان يسري إلى قلبي كما يسري الماء إلى الأرض العطشى فتمتصه في شوق .

قصصت عليه حكايتي ، وموقف الناس إزائي ، فابتسم في رقة وقال :

ـ لا عليك .. سأدلك على رجل لن يخذلك .
ـ بالله عليك يا رجل هات عنوانه .
ـ هو قسيس في كنيسة في المدينة المجاورة ، ستذهب إليه وتعرض عليه قصتك ، وسيقوم بالواجب .
ـ قسيس؟!
ـ نعم ..!
ـ وما المقابل الذي يطلبه ؟!
ـ لا شيء.. هذا الرجل يخدم بدافع الإنسانية والأخوة في الوطن.

أخذت العنوان وعدت إلى بيتي مطمئن النفس ، قرير العين ، وفي اليوم التالي ذهبت لمقابلة القسيس .. شرحت له ظروفي ، وعرضت عليه حكايتي ، فنظر إليّ ثم ابتسم في هدوء ، وسألني عن عنوان سكني ، ثم طلب مني أن أتركه مدة أسبوع حتى يدبر أمره ، عدت إليه في الموعد المحدد فوجدت أربعة من القساوسة في انتظاري ومعهم طبيب مختص، أخبرهم الطبيب بعد أن أنهى إجراءات

الكشف واطلع على التحاليل والأشعة بأنه يلزمني عملية جراحية في أوتار الذراع الأيمن كي يعود إلى حركته الطبيعية ، سألوه هل بإمكانه إجراء مثل هذه العملية ، أجابهم بالموافقة لكن الأمر يتطلب مبلغا لا يقل عن عشرين ألف جنيه.. نظر بعضهم إلى بعض من غير أن ينطق أحدهم بكلمة .

عدت إلى بيتي فاقد الثقة ، حاولت أن أقنع نفسي بهذه الحياة ، وأرضى بقضاء ربي .. مر شهر كأنه دهر لدرجة أنني قد وطنت نفسي وروضتها على الحياة الجديدة ، فإذا بشاب يأتي إلى بيتي يطلب مني المثول أمام اللجنة الطبية في الصباح الباكر.

قررت اللجنة إجراء العملية بعد أسبوع ، وبالفعل أجريت العملية ونجحت والحمد لله ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أقاموا لي مشروعاً صغيراً يعينني على أعباء الحياة ، كنت بين لحظة وأخرى أنتظر أن يطلبوا المقابل ، كان خوفي أن يساوموني على ديني مقابل الخدمات التي قدموها لي ، لكن هذا لم يحدث ، بل إنني حين سألته عن سبب اهتمامه بي ، أخبرني بأن صدقي معه جعله يحترمني ويصر على مساعدتي ، ويقول : يكفي يا بني أن نكون بني وطن واحد ، من ثم توطدت العلاقة بيننا وصرنا أصدقاء ، ومنذ هذه اللحظة وأنا أكن لهم كل احترام وتقدير ، ولا أدع مناسبة من المناسبات دون أن أشاركهم أفراحهم وأحزانهم ، وهاأنذا ذاهب الآن إلى الإسكندرية لحضور حفل زواج أحد أقارب القسيس .

هذه يا سادة حكايتي ما كنت أرغب في قصها لولا مرور السائل الذي ضجرتم منه ، لكنه ذكرني بقصتي .. قد يكون حاله كحالي عندما كنت في أمس الحاجة إلى المساعدة، وحينما خضتم في حديثكم عن الفتن الطائفية أردت أن ألفت انتباهكم بأننا منذ ألف وأربعمائة سنة نعيش على أرض مصر كأبناء وطن واحد ، لم نعرف التطرف أو الإرهاب أو التعصب الأعمى أو ما يسمى بالفتن الطائفية

إلا في العقد الأخير من القرن العشرين بسبب محاولات الغربيين المستمرة لإحداث صدع أو شرخ في جدار الأمة يسمح لهم بالتدخل في شئون بلادنا واحتلالها من جديد ، وتذكروا يا عباد الله أن الله سبحانه وتعالى قال في محكم آياته : (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

صمت الجميع كأن على رؤوسهم الطير ، وبدا الشاب الأرعن خجلاً من نفسه بعدما تبين له كذب دعواه ، وبعدما أيقن أن إطلاق الأحكام أمر فيه من السفه والشطط ما لا تحمد عقباه، طفق الرجل الوقور يرسل من جديد بصره عبر النافذة يتأمل بديع صنع الله ، ويقول بين الفينة والفينة : سبحان الله ..!!

******